ما معنى أن نؤمن بالله؟

الجزء الأول من "إرشادات روحية للقديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس"

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

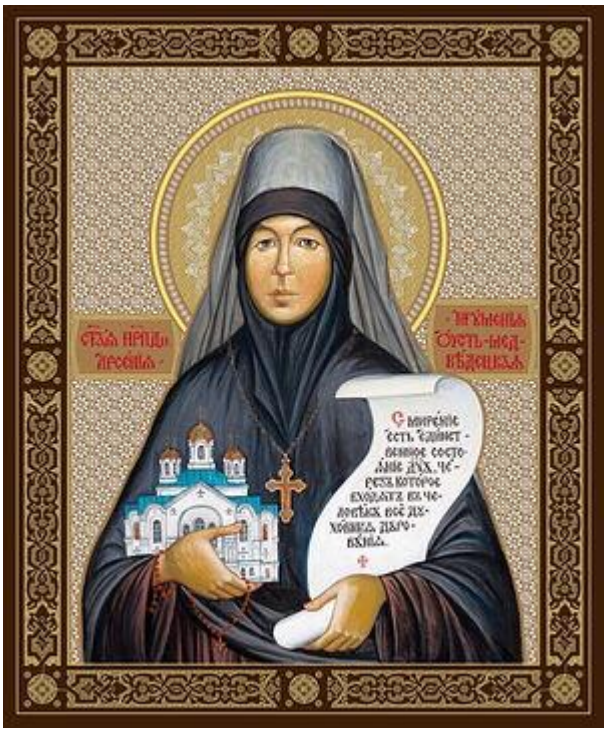

في ٢١ تشرين الأول ٢٠١٦، قام المجمع المقدس للكنيسة الأرثوذكسية الروسية بإعلان قداسة القديسة أرسانيا من دير أوست ميدفيديتس (Ust-Medvedits) كقديسة مكرمةٍ محليًا في أبرشية فولغوغراد.

تنحدر رئيسة الدير أرسانيا (١٨٣٣-١٩٠٥) من عائلة نبيلة من منطقة (دون). في عمر السابعة عشرة، دخلت آنا ميخائيلوفا دير أوست ميدفيديتس بكامل إرادتها. بلغ الدير ذروته الروحية خلال سنوات رئاستها الأربعين من عام ١٨٦٤ حتى رقادها في ٣ آب ١٩٠٥.

إلى جانب أنشطتها التعليمية والخيرية، فإن الثمار الرئيسية لأتعاب أرسانيا الموقرة كانت كاتدرائية قازان، التي تم تشييدها بين عامي ١٧٨٥ و ١٨٨٥، والكهوف الشهيرة التي تم حفرها على شاكلة مغاور كييف. واليوم يقبع هناك الضريح الرئيسي للدير واللوح الحجري العجائبي الذي تظهر عليه آثار أيدي وركب الناس الذين يركعون للصلاة، حيث يأتي المؤمنون ليتضرعوا إلى القديسة أرسانيا لنيل الأشفية وحسن ترتيب الشؤون العالمية وازدهار الحياة العائلية.

إلى جانب حياتها المقدسة، تركت لنا القديسة أرسانيا كتاباتٍ قيمةً حول الحياة الروحية، والتي نقدمها إكراماً لتذكار إعلان قداستها.

ما معنى أن نؤمن بالله؟

ما معنى أن نؤمن بالله؟ من الضروري ألا نكتفي بالإيمان بوجود الله الخالق وبالخلاص المُعطى لنا بيسوع المسيح، بل يجب أن نؤمن إيماناً غير متزعزع، في كل ظروف الحياة مهما كانت صعبة، بأن الله رحيم ويريد خلاصنا. إن رؤية هذا ومعرفة خيرنا الأبدي وليس المؤقت فقط، يقودانا إلى الله كأبٍ محبٍ وحكيمٍ يرشد أبناءه بمحبة متساوية وحنانٍ وحزم. لذلك، علينا أن نقبل كل شيء برجاء برحمة الله، سائلين معونته فقط في كل تجربة وغواية، سواء أتتنا من الخارج أو من الضعفات أو من البشر الذين هم أدوات الله لخلاصنا، وغالباً ما يكون الأمر متبادلاً [أي أننا أدوات الله لخلاصهم أيضاً. المترجم]. إن تواضعنا يخلّص حتى أولئك الذين يحزنوننا.

ذكر الله

إن تشتت أفكارنا وانجذاب أذهاننا نحو اهتماماتٍ باطلةٍ يُعيقنا عن ذكر الله بلا انقطاع. فقط حين تكون حياتنا موجهة بأكملها نحو الله نصبح قادرين بواسطة الإيمان على رؤيته في كل شيء– في أهم ظروف الحياة وفي أبسطها – ونبدأ بالتسليم لمشيئته في كل شيء، الأمر الذي بدونه لا يمكن أن يوجد ذكرٌ لله

ولا صلاة نقية غير منقطعة. إن للمشاعر والأهواء تأثير أكثر ضرراً على ذكر الله، وبالتالي على الصلاة. لذلك علينا أن ننتبه باستمرارٍ وبشكلٍ صارمٍ إلى القلب والأمور التي تجذبه مقاومين إياها بحزمٍ، لأن الانجذاب يقود النفس إلى ظلامٍ دامس. كل هوىً هو معاناة للنفس ومرض يستلزم علاجاً فورياً. اليأس وأشكالٌ أخرى من برودة القلب تجاه العمل الروحي هي أمراض. كما أن الإنسان الذي كان مصاباً بالحمى يبقى ضعيفاً خاملاً وغير قادرٍ على العمل حتى بعد تجاوز المرض، كذلك تصبح النفس المريضة بالهوى غير مبالية وضعيفة ومتقلقلة وعديمة الحس وغير قادرة على القيام بالعمل الروحي. هذه أهواء روحية. التسلح وخوض معركة ضد الأهواء وهزيمتها هو عملنا الرئيسي. علينا أن نكد بحماسةٍ في هذه المعركة ضد الأهواء الروحية. تكشف لنا الصلاة عن الأهواء المعششة في قلوبنا. أياً يكن الهوى الذي يعيق صلاتنا، علينا أن نحاربه على الفور، والصلاة نفسها ستساعدنا في هذه المعركة، وبالصلاة يتم اجتثاث الهوى.

في الصلاة

صلاة الإيمان المترافقة مع وعي المرء لحالته الخاطئة وضعفه العام وعجزه هي الشكل الأوحد للصلاة التي لا ضلال فيها بالنسبة للإنسان الذي لم يحرز الصلاة النقية. ليس من الملائم أن أتكلم عن الصلاة النقية كوني لا أملكها. إنها هبة من الله وممكنة من خلال عمل نعمة الله في القلب، بل إنها بالأحرى فعلُ النعمة عَينه، والسبيل إليها هو النقاوة. ليس من الصعب اكتساب نقاوة الأفكار ونقاوة الحواس من خلال التوحّد والقراءة والتدرب في الصلاة. وأما نقاوة القلب فنكتسبها بميتاتٍ كثيرة – إنها قَطعٌ للأهواء. حاول أن تقصد مكاناً منعزلاً لبعض الوقت، حاول أن تطرح كل الاهتمامات والمخاوف، واستسلم للصلاة، وسترى كيف ستهدأ الأفكار المضطربة والمشاعر المتقلقلة، وستبدأ بالصلاة بنزعةٍ سلامية ويقظة. ولكن، هناك في الصدر ثقلٌ غامضٌ يضغط ويضغط، ويقبع فوق القلب كصخرةٍ بدون أي دوافعَ أو رغباتٍ، مسبباً ظلاماً وضيقاً يقف كحائط بين النفس والرب. يمكن هدم هذا الحائط بنعمة الله فقط، بجهادنا الثابت العزم ضد الأهواء بحسب وصايا الله. وبالنسبة لنا، نحن العائشين في ظلمة الأهواء، فإننا بحاجة إلى صلاةٍ من قلبٍ منسحقٍ مع إيمانٍ بالرب الذي يخلّص.

صلاة يسوع هي تعبير عن شعور حيٍّ بالإيمان. إن لم نقتنِ الصلاة بسبب الكسل أو التشتت، فعلينا أن نلتمسها بجهدٍ كبير. حين تغادرنا الصلاة بفعل ثورة الأهواء، فعلينا عندها أن نتصارع مع جميع أسباب الأهواء وأن نقطعها. حين تعجز النفس عن إيجاد الصلاة بسبب اليأس، أي بسبب الظلام الروحي، فمن الأفضل عندها الثبات في الاعتراف بذاك الذي يُخلّص.

تتطلب الصلاة نقاوة نفس، ويتم اقتناؤها عبر أفعال التضحية بالذات بحسب وصايا الله.

في السلام الروحي والصلاة

إننا بحاجةٍ للسلام الروحي، ليس فقط كي نمكث في صلاة مستمرة، بل حتى لإتمام قانون الصلاة. إذا ما تم انتهاك السلام الروحي بطريقةٍ ما، فإما الصلاة تصبح شفوية فقط أو أنها تُردَّد بالذهن بمجهودٍ كبير، ولا تُردَّد بالقلب أبداً. إن السلام الروحي الذي هو خاصية "القلب النقي" يُقتنى، أو من الأصح القول أنَّ الربَّ يرسله إلينا، بعد الكثير من الأتعاب والجهادات ضد الأهواء الروحية وبعد الكثير من نكران الذات. لكن دعُونا نحن الخطأة الذين نأكل من فتات موائد الأغنياء نسعى لاكتساب السلام أثناء الصلاة على الأقل. إن ذلك يتطلب جهاداً صعباً وطويلاً، وقطع الأفكار تماماً أثناء الصلاة، منكرين الحواس والعالم المحيط بأسره، مسلّمين كل شيء لمشيئة الله، بثبات قلبٍ غير متزعزع في الإيمان، بإيمانٍ لا ريب فيه

بقوة الله. بثبات القلب هذا تصبح الصلاة سلامية. ولكن إذا تم تحقيق هذه الحالة بالأتعاب ولم تكن عطية نعمة الله، فإنَّه أحياناً ما ترهق عالمنا الداخليَّ وتُظلمه حالتان متضادتان: إما برودة القلب أو متعة الحواس، فتحلُّ محلَّ اضطراب الأفكار وهيجان المشاعر. إن برودة القلب وحشٌ لا يمكن التغلب عليه بالقوة البشرية. ويتطلب تليين القلب الكثير من أعمال المحبة تجاه القريب، والكثير من الرحمة تجاه نقائص الآخرين ومسامحتهم. وأثناء الصلاة التي نترجى فيها قوة الله، علينا الصلاة لأجل قريبنا ولأجل العالم أجمع ولغفران خطايا جميع الخطأة الذين أنا أولهم. عندها ستزول البرودة ويأتي الفرح الذي يثير الحواس ويقطع السلام. عندها تكون هناك الحاجة إلى تواضع عميق، بل وحتى تركٌ مؤقت للصلاة بسبب عدم استحقاقنا وبسبب أنانيتنا تجاه القريب بالقول أو الفعل. فقط في أعماق التواضع وإدانة الذات يمكن إيجاد السلام الداخلي الذي يسهل الصلاة الحقيقية.

في التوبة

على غرار الصلاة، يجب ألا تكون التوبة كئيبة. التوبة الحقيقية هي عطية من الله، مليئة بالانسحاق. يجب أن تكون توبتنا فقط وعياً ويقيناً بحالتنا الخاطئة وعدم الاتكال على الذات. هذا ما يقود إلى التوبة.

غاية الحياة

إن غاية حياة الإنسان هي الشركة مع الله، ألا وهي خلاص نفوسنا وغبطتها الأبدية. وسائل العمل بوصايا الله هي: الخضوع لمشيئته التي تكشف نفسها في ظروف الحياة، والتعب لتطهير القلب من الأهواء، والتواضع الذي يقود إلى الإيمان وإلى قبول نعمته التي بدونها لا يمكن لأي شيء صالح أو مقدس أن يتحقق فينا.

وصايا الله

أشار الرب إلى وصيتين رئيسيتين تتضمَّنان كل شيء: محبة الله ومحبة القريب. ولكنْ، هناك وصايا قد أشار إليها في التطويبات، حين قال طوبى لأنقياء القلوب، وغير ذلك. تشير كلمات المسيح هذه إلى ما يجب أن نقتنيه من سمات القلب والنفس، وعندها فقط يمكننا إتمام تلك الوصايا الأسمى، والتي يُقال أنها تتضمن كل شيء فيها [أي كل الوصايا الأخرى]. فلنبدأ بالتطويبة الأولى: المسكنة بالروح تعني تحطيم الأنا كي يرى المرء كل عجز نفسه وكل عيوبها وخطاياها. إذا ما رأت النفس وعرفت وشعرت بذاتها بهذه الطريقة، فمن المؤكد أنها ستأتي إلى الإيمان وإلى القناعة بأنَّه في الله، وفي الله وحده، تكمن قوتها وتنقيتها وخلاصها، وإيمان النفس هذا هو الباب إلى ملكوت السموات، ليس فقط إلى ملكوت السموات الذي سيكون ميراث النفوس المقدسة في الأبدية، بل أيضاً إلى الملكوت الذي في داخلنا. إن مسكنة الروح هذه مباركة بحق، لأنَّ النفس التي أدركت ضعفها ودنسها وعجزها عن أي أمرٍ صالح تفقد إيمانها بنفسها وتتوقف عن وضع رجائها في نفسها، وذلك هو بداية الإيمان والرجاء بالله. تجدُ النفس الله بالتحديد حيث تفقد ذاتها. إنه لأمر صعبٌ ومرٌ أن يبقى المرء في هذه المسكنة والقنوط، إذ تشعر النفس أنها تهلك وأن لا خلاص لها ولا معونة من أي مكان. ولكنْ يجب التغلب على حالة القنوط هذه للوصول إلى الإيمان. علينا ألا نكتفي بمعرفة ضعفنا بالذهن، بل أن نشعر به بكل كياننا ونعيش فيه، وعندها فقط تصل النفس إلى الإيمان الحي بالله. ستراه يعمل في كل شيء حين تتوقف هي، بكل "أناها"، عن التصرف في كل شيء. ستراه يسود حين تتوقف هي عن الاتكال على منطقها في كل شيء.

افتحوا الإنجيل، اقرؤه، وتعمقوا في ما علّمه الرب لتلاميذه، وستتعلمون ما هي الوصايا التي أعطاها لأتباعه. علمهم أن ينكروا كل شيء، وذواتهم أولاً، حتى إلى درجة رفض نفوسهم ذاتها. هذا الإنكار ضروري

لأن النفس مدنَّسة جداً، وفيها الكثير الكثير من الأهواء التي تتعارض مع روح المسيح، والتي بدون قطعها تصبح الشركة مع المسيح مستحيلة. إن إنكار الذات يصبح ممكناً فقط حين يكون لدينا هدفٌ ننكر من أجله ذواتنا ونقطع أهواءنا. هذا الهدف هو محبة القريب. لإتمام واجب محبة القريب علينا أن نهمل ذواتنا وننكر نفوسنا. أظهر الرب هذه المحبة بالكلام والمثال. علمنا أن نغفر لأعداءنا، أن نرحم الضعفاء، ألا ندين الخطأة، أن نضحي بأنفسنا لصالح الآخرين. لا يمكن إتمام وصية محبة القريب ما لم ننكر نزوعنا للخيرات الأرضية. يمكننا إنكار ذواتنا والخضوع في كل شيء لقريبنا حين نرى الحياة الأبدية، حين نسعى لمحبة الأبدي، الصلاح اللامتغير، المثاليّ وحده – الله.

وهذه هي أولى وأهم وصايا المسيح: أن نحب الرب بكل قلبنا وذهننا وقوتنا. خلاصة القول أن الرب أشار إلى كمال الطريق الروحي، ولكن حياة الإنسان بأكملها غير كافية لإتقان وإتمام هذه الوصية من المسيح. أنكروا ذواتكم. ولكن، ما معنى ذلك؟ أن تعرف نفسك على نحو سليم، أن ترى كل دنس نفسك وكل أهوائها وضعفاتها – هذه هي المهمة التي يجب أن يؤديها مدى الحياة أولئك الذين يرومون الخلاص. قلت "الخلاص"، ولكنْ، ما الذي يتم تخليصنا منه؟ إننا نخلص من الهلاك الذي نجد أنفسنا فيه. هذا يعني بأن اكتشاف الهلاك المحيط بنا هو السؤال الأكثر إلحاحاً. هذا هو هلاكنا المشترك – الهلاك الذي أعددناه لأنفسنا من أهوائنا وخطايانا، هلاك لا نراه داخل ذواتنا ولا نشتبه بوجوده حتى. في الوقت ذاته، ما يحيا فينا يمنعنا من اتباع المسيح بالرغم من تصميمنا ورغبتنا. لذلك علينا قبل كل شيء أن ننقي المواضع السرية من النفس، أن ننقى الإناء الذي، بحسب قول الرب، يخرج منه الزنى والقتل والسرقة وكل أنواع الأهواء والخطايا.

التواضع

التواضع هو حالة النفس الوحيدة التي من خلالها ينال الإنسان جميع العطايا الروحية. إنها الباب الذي يفتح القلب ويجعله قابلاً للأحاسيس الروحية. يجلب التواضع هدوءاً ثابتاً إلى القلب، وسلاماً إلى الذهن، ويقظة إلى الأفكار. التواضع هو القوة التي تحتضن القلب وتعطيه لمحةً عن ذاك الشعور بالحياة الأبدية، والذي لا يمكنه أن يدخل قلب الإنسان الجسداني. التواضع يعطي الذهن نقاوته الأصلية، فيبدأ يرى بوضوحٍ الفرق بين الخير والشر في كل شيء. لا يمكن أن توجد صلاة نقية روحية إلى أن يشعر القلب بالتواضع.

Source: St. Arsenia of Ust-Medvedits. What Does it Mean to Believe in God? Spiritual Instructions. Part 1. Translation by Jesse Dominick. Azbyka.ru. 10/25/2023. https://orthochristian.com/156903.html